بلاد التيجان السبعة

دروب الرماد



رضا الحكيم الشعيري

بلاد التيجان السبعة

الجزء الثاني

دروب الرماد

حين تسكت السيوف،
تبقى الطرق تحمل ما أخفته الحرب.

رضا الحكيم الشعيري


بعد مرور أربعة أشهر

مرّت أربعة أشهر منذ حمل القروي رجلًا يحتضر من ممر المناجم، وكانت الرياح قد تبدّلت فوق الجزيرة.

صارت تهبّ باردة عند الفجر، وتترك على الحجارة السوداء طبقة رقيقة من الندى. تساقطت أوراق الأشجار القريبة من البحيرة، فظهرت بينها مسالك لم يكن نائل يراها يوم وصل، بينما بقيت أعماق الغابة خضراء كثيفة، كأن الفصول تبلغ أطرافها ثم تتراجع.

في ذلك الصباح، كان يجري قبل أن تشرق الشمس.

هبط منحدرًا ضيقًا بين جذور بارزة، وقفز فوق شق امتلأ بماء المطر، ثم انحنى تحت غصن منخفض دون أن يبطئ. حمل عصاه في يده اليمنى، وربط حقيبته إلى ظهره بحزام قصير حتى لا ترتطم بجنبيه. عند أسفل المنحدر، انزلقت قدمه فوق حجر مبتل؛ غرس طرف العصا في التراب، واستدار حولها، ثم تابع الجري وقد ترك خلفه أثر كف واحدة.

قبل أشهر، كان سيسقط هناك.

وقبل أسابيع، كان سيلتفت ليرى إن كان أوران قد لاحظ نجاته من السقوط.

هذه المرة لم يلتفت.

سمع حركة الشيخ فوق المرتفع إلى يساره، لكنه لم يتبع الصوت. ضغط بأصابع قدمه داخل الحذاء، وأبطأ تنفسه. وصل إليه اهتزاز خفيف عبر الجذر الممتد تحت التراب، ثم انقطع وعاد أقرب مما توقع.

رفع عصاه.

هبطت عصا أوران من بين الأوراق، فاصطدم الخشبان فوق رأسه. انحنى نائل تحت الضربة التالية، ودفع كتفه إلى الأمام محاولًا إبعاد الشيخ عن موضعه. انسحب أوران نصف خطوة، وتركه يندفع أكثر مما ينبغي، ثم ضربه خلف الركبة.

كادت ساقه تخونه.

ثبت العصا إلى الأرض، وأعاد توازنه، لكن طرف عصا الشيخ لامس صدره قبل أن يستقيم.

قال أوران:

— متّ.

نظر نائل إلى الموضع الذي لمسته العصا، ثم رفع عينيه إليه.

— للمرة الثالثة هذا الصباح. بدأت أعتاد الأمر.

لم يبتسم أوران، إلا أن طرف فمه تحرك قليلًا قبل أن يستدير نحو الغابة.

تبعَه نائل وهو يفرك ركبته. كانت على ساعديه آثار خدوش قديمة، وفي راحتيه جلد خشن لم يكن موجودًا حين حمل سلة الخبز إلى دكان أوران للمرة الأخيرة. طال شعره حتى صار يربطه خلف رأسه، ونقص شيء من امتلاء وجهه، لكن عينيه احتفظتا بالفضول نفسه؛ كان يتوقف أحيانًا أثناء التدريب ليتفحص حشرة غريبة أو حجرًا مختلف اللون، فيضطر أوران إلى تذكيره بأن خصمه لن ينتظره حتى ينتهي من اكتشاف الجزيرة.

بلغا أرضًا مرتفعة لم يدخلاها من قبل.

امتدت أمامهما صخور متقاربة، تفصل بينها شقوق نبتت فيها شجيرات قصيرة. وفي الجهة المقابلة، وراء حائط من الجذور والحجارة، ظهر طرف عمود مائل غطاه الطحلب.

أشار أوران إليه.

— تصل إلى ذلك العمود قبل أن ألمسك مرة أخرى.

تفحص نائل الطريق. كان يستطيع الالتفاف من اليمين، لكن الأرض مكشوفة، وسيبلغه الشيخ قبل أن يقطع نصفها. أما اليسار فممر ضيق بين الصخور، ينتهي عند فجوة لا يعرف عمقها.

نظر إلى أوران.

كان الشيخ قد رفع عصاه.

تحرك نائل إلى اليسار.

لم ينتظر الضربة الأولى. قفز فوق صخرة مسطحة، ثم هبط خلفها واستدار، فمرت العصا قرب كتفه. رد بضربة قصيرة أجبرت أوران على تغيير وقفته، واستغل اللحظة ليتقدم بين الحجارة.

جاءه الشيخ من الجانب الذي ظنه مغلقًا.

تراجع نائل، واصطدم ظهره بالجذور. أمامه أوران، وخلفه الحائط الذي يفصله عن العمود. حاول النظر إلى الممر الأيمن، لكن عصا الشيخ قطعت عليه الحركة.

لم يبق له متسع.

وضع كفه على الصخر خلفه.

شعر بالبرودة أولًا، ثم بشيء آخر تحتها.

لم يكن اهتزاز قدم، ولا ارتجاف جذر يحمل وزنًا. جاءه الإحساس ممتدًا، هادئًا، كأن الأرض خلف الجدار تستمر في جهة لا تسمح عيناه برؤيتها. مرّ خط غامض في ذهنه: درج قصير، انعطافة إلى اليمين، ثم فسحة تحت العمود.

تردد لحظة.

هبطت عصا أوران.

انحنى نائل، وجرّ طرف عصاه فوق التراب عند قاعدة الجدار. رسم خطًا منحنيًا، ثم رفعه على امتداد الصخرة، متبعًا المسار الذي شعر به دون أن يفهمه.

توقفت عصا الشيخ قبل أن تلامس كتفه.

صدر صوت من داخل الحجارة.

كان خافتًا في البداية، يشبه احتكاك باب ثقيل لم يُفتح منذ زمن. تساقط التراب من بين الجذور، وانشق الطحلب على وجه الصخرة. امتد الشق بمحاذاة الخط الذي رسمه نائل، ثم ظهرت حافة حجر منتظم خلف طبقة التربة.

ابتعد نائل خطوة.

تحركت الصخرة إلى الداخل مقدار ذراع.

لم تتحطم، ولم تسقط. انزاحت على مجرى قديم تحتها، وجرّت معها جذورًا يابسة انقطعت واحدة بعد الأخرى. انكشف وراءها ممر قصير، وفي أرضه ثلاث درجات تتجه نحو الضوء.

عبره نائل.

صعد الدرج، وخرج إلى الجهة الأخرى، ثم وضع كفه على العمود المائل.

استدار مبتسمًا.

— وصلت.

كان أوران ما يزال عند مدخل الممر.

لم ينظر إلى العمود، ولا إلى يد نائل فوقه. ركع قرب الخط المحفور في التراب، ومد إصبعين نحوه، لكنه توقف قبل أن يلمسه. ثم رفع بصره إلى الحجارة التي تناثرت حول الفتحة.

عرف نائل تلك النظرة. رآها حين امتد خط خريطته إلى وسط البحيرة، ورآها قبل ذلك على وجه الشيخ وهو يتفحص البوصلة التي لا يحب أن يراها أحد.

اختفت ابتسامته قليلًا.

— لم أقصد فتحه.

نهض أوران ببطء، وعبر الممر. مرر كفه فوق حافته الداخلية، فخرجت من تحت أصابعه طبقة من الغبار الرمادي.

— ماذا قصدت؟

نظر نائل إلى عصاه.

— كان الطريق هنا. شعرت به… فأردت الوصول إليه.

انتظر سؤالًا آخر، أو أمرًا بإعادة ما فعله. لكن أوران جلس فوق حجر قرب العمود، ووضع العصا إلى جانبه.

كان ضوء الصباح قد بلغ المرتفع. من بين الأشجار ظهرت البحيرة، ساكنة إلا من دوائر صغيرة حول حشرات الماء. وراءها استقرت السفينة السوداء عند موضعها، والحبل المربوط إلى جذع الشجرة مشدود فوق الشاطئ.

جلس نائل قبالة الشيخ. شعر الآن بارتجاف في أصابعه، فأغلقها وأخفاها بين ركبتيه. انتظر أن يتحدث أوران عن الممر، لكن الشيخ ظل يراقبه حتى هدأ تنفسه.

ثم سأله:

— ماذا تريد أن تصير يا نائل؟

رفع رأسه، مستغربًا السؤال.

لم يضحك هذه المرة. نظر نحو البحيرة، ثم إلى المسافة البعيدة التي احتجب فيها البحر خلف الأشجار. طوال أشهر، كان يسمع أن وقفته خاطئة، وأن خطواته مكشوفة، وأن يده أسرع من فهمه. لم يسأله أحد أين يريد أن يصل بكل ذلك.

قال بعد قليل:

— أريد أن أبني مملكتي الخاصة.

ثبتت يد أوران فوق عصاه.

تابع نائل، وقد صار ينظر إليه مباشرة:

— وأوحّد الممالك الأخرى... وأعيد رسم خريطة العالم.

لم يصل إلى أوران صوت الأوراق التي حركتها الريح.

كان نائل جالسًا أمامه، بثيابه الملطخة بالتراب وجرح صغير عند حاجبه، لكن وراء كتفه بدأ وجه الصباح يبهت. نهض في ذاكرة الشيخ ظل رجل لم تتضح ملامحه، واقفًا بالطريقة نفسها التي وقف بها نائل قرب العمود قبل لحظات.

يد تستقر فوق خريطة.

رأس يرتفع نحو من يصغي.

وصوت قديم، بعيد، نطق الكلمات نفسها:

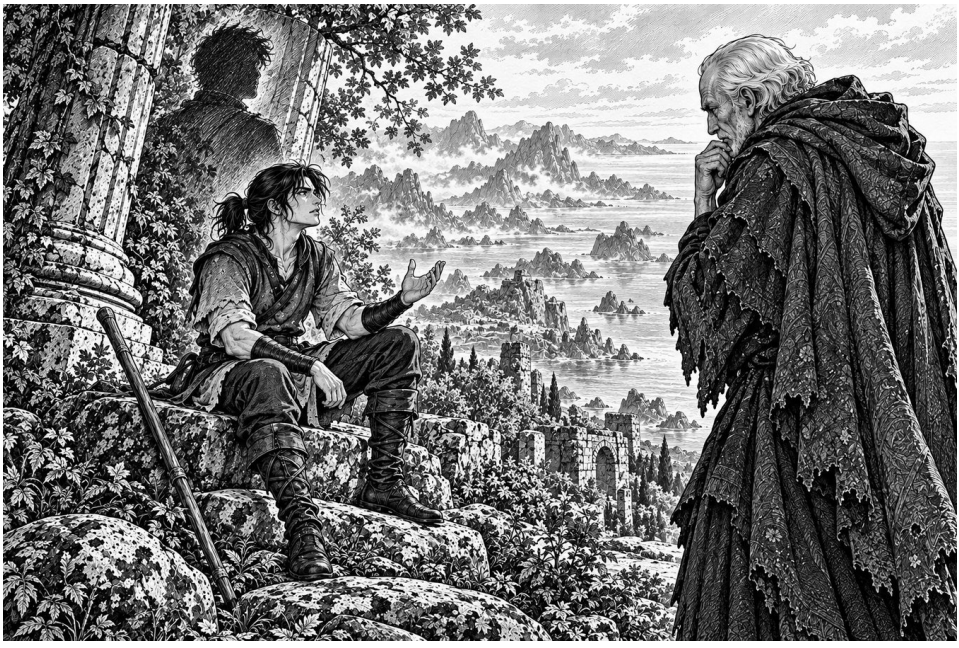
أريد أن أبني مملكتي الخاصة.

وأوحّد الممالك الأخرى...

وأعيد رسم خريطة العالم.

اشتدت أصابع أوران حول الخشب حتى ابيضّت مفاصلها.

لم يكن الظل يقترب، ولم يكن له وجه يستطيع الضوء بلوغه. بقي خلف نائل لحظة واحدة، ثم تحرك الفتى ليلتقط عصاه، فعاد الصباح إلى موضعه، وعاد صوت الريح بين الأشجار.



كان نائل ما يزال يتحدث.

— لا أعرف كيف سأفعل ذلك. لكنني لا أريد أن أقضي عمري أطلب الإذن لأعبر من أرض إلى أخرى. أريد مكانًا يأتيه الناس لأنهم يريدون العيش فيه.

نظر إلى الممر الذي انفتح خلفه.

— وأظن أن العالم أوسع مما تركوه لنا على الورق.

خفض أوران عينيه.

مسح بإبهامه موضعًا قديمًا فوق مقبض العصا، ثم نهض. التقط حقيبته الصغيرة، ونفض عنها الغبار، وأدار وجهه نحو الطريق المنحدر إلى البحيرة.

قال:

— اجمع أشياءك.

نهض نائل بدوره.

— هل انتهينا اليوم؟

توقف الشيخ عند أول الدرجات.

— انتهى تدريبك على الجزيرة.

بقي نائل واقفًا مكانه، وعصاه في يده.

أما أوران فتابع النزول، ولم يلتفت حتى لا يرى الفتى ما بقي في وجهه.

◆

في قرية صغيرة خلف تلال قاسران، كان سايرن يحاول تثبيت عارضة سقف قبل أن يصل المطر.

وقف فوق سلم قصير، وقد رفع الخشب إلى كتفه اليسرى، بينما أمسك القروي بطرفه الآخر من داخل البيت. تحت قدميه، تراكمت قطع القش والطين اليابس التي نُزعت من السقف القديم. كان الماء قد تسرب منه طوال الليلة الماضية، واضطرت ابنة الرجل إلى نقل الأواني بين الغرفة والمخزن حتى لم يبق إناء فارغ في البيت.

دفع سايرن العارضة إلى موضعها.

شدّ الألم جنبه فجأة.

توقف، وأبقى وجهه نحو الجدار حتى لا يراه القروي. انتظر أن يخف الوخز تحت الندبة، ثم غيّر وقفته واستأنف الرفع.

لاحظ الرجل ذلك، لكنه لم يقل شيئًا. قرب السلم مقدار خطوة، ورفع طرف العارضة أكثر، فاستقرت فوق الحجر.

احتاج تثبيتها إلى بقية الصباح.

قبل أشهر، كان سايرن يصدر أمرًا فيتحرك آلاف الرجال. الآن كان يعيد دق مسمار أعوج لأن الحديد في القرية قليل، ولأن القروي يلتقط كل قطعة تسقط في التراب ويحتفظ بها في صندوق صغير قرب الباب.

تعلم أين يضع الأدوات بعد استعمالها، وأي ألواح الحظيرة تصلح للترميم، ومتى ينبغي إغلاق مجرى الماء حتى لا يغمر الحقل السفلي. في البداية فعل ذلك كي لا يبقى عالة على البيت الذي أنقذه. ثم صار يخرج إلى العمل قبل أن يُطلب منه.

عادت القوة إلى ساقيه ببطء. استطاع السير حتى البئر، ثم إلى الحقول، ثم صعود التلة المطلة على الطريق دون أن يضطر إلى الجلوس في منتصفها. أما كتفه وجنبه فكانا يذكرانه، عند حركة مفاجئة أو ليلة باردة، بأن ما انغلق من الجروح لم يُمحَ.

لم يلمس سيفًا.

كان يختبر يده أحيانًا بفأس الحطب خلف البيت، بعيدًا عن العيون. يرفعها وينزلها، ويراقب مقدار ما يحتمله جسده قبل أن يبدأ الارتجاف. وفي بعض الصباحات بقيت الفأس مغروسة في الجذع، وجلس هو قربها زمنًا طويلًا، غاضبًا من تعب لا يستطيع أن يأمره بالزوال.

تغير وجهه خلال الأشهر الماضية. غطت لحيته جزءًا من الندبة القريبة من فكه، وطال شعره، وأخذت الشمس من شحوبه. ارتدى ثيابًا خشنة تركها له القروي، وسار محنيًا قليلًا حين يمر غرباء بالقرية. عرفه الجيران قريبًا بعيدًا جاء بعدما خسر بيته في القتال، ولم يسألوه كثيرًا؛ كان في كل بيت ما يكفي من الخسارة ليصدق الناس خسارة رجل آخر.

بقي اسمه الحقيقي داخل البيت.

لم تنطقه ابنة القروي حتى حين كانوا وحدهم. كانت تترك له الطعام، وتفحص الجرح إذا عاد الألم، ثم تواصل أعمالها. وحين حاول شكرها ذات مساء، أعطته سلة فارغة وأشارت إلى الحطب، كأنها وجدت له طريقة أنفع للكلام.

بعد إصلاح السقف، خرج سايرن إلى البئر.

ساعد امرأتين في رفع الدلاء، ثم حمل كيس دقيق إلى بيت رجل فقد ساقه في الحرب. عند الباب، رأى صبيًا يصلح رباط حذاء عسكري أكبر من قدمه، بينما كانت أمه تقسم الخبز إلى قطع صغيرة وتعيد نصفها إلى القماش.

لم يكن يحتاج إلى سؤالها عن السبب.

رأى العربات التي تمر بأكياس الحبوب نحو الطريق المحروس، ورأى الرجال يعودون من السوق يحملون أقل مما حملوه إليه. كانت أسماء الحصون التي تتردد بين القرويين مألوفة لديه، لكنهم يذكرونها ليشرحوا لماذا تأخر الدقيق، أو أين اختفى أخ، أو أي طريق لم يعد آمنًا للذهاب إلى الطاحونة.

حين كان ينظر إلى الخريطة في قاعة الحرب، كانت المسافة بين حصنين خطًا يحتاج إلى حراسة.

هنا كان يعرف المرأة التي تمشي ذلك الخط لتبيع البيض.

قرب آخر البيوت، سمع وقع خيل.

لم يرفع رأسه فورًا. وضع كيس الدقيق داخل الباب، ثم خرج ببطء ومسح كفيه في ثوبه. مرت دورية من رهفان على الطريق المرتفع؛ ستة فرسان، يحمل أحدهم راية صغيرة، ويتدلى من سرج آخر قفص فيه دجاج.

توقف طفل عن اللعب حتى عبروا.

بقي سايرن قرب الباب، يراقب ظل الخيول على التراب. كان يستطيع بلوغ أقرب فارس قبل أن يسحب الرجل سيفه. عرف المسافة، وموضع القدم التي سيبدأ بها، والطريقة التي ينتزع بها الرمح من يد الحارس الأخير.